الكارمية

الشاطر بصيلي عبد الجليل

يبدو أن الوقت قد حان للعمل على متابعة التاريخ الاقتصادى العربى ، والتعرف على الدور الذى لعبه العرب فى هذا المضمار ، بعد أن انتقلت إلى أيديهم هذه التجارة ، التى عرفت باسم عام هو « الكارم » وصار رجاله يعرفون بالكارمية كما أنه من الضرورى أيضاً ، القيام بمحاولة الكشف عن العلاقات ، التى قامت بين العرب وبين المشتغلين بالتجارة ، فى حوض المحيط الهندى الذى كان يحتل مركزاً وسط فى التجارة العالمية. والواضح أن التجارة تخرج من بلدان على مستوى حضارى ، وتنتقل إلى من يشتريها أو يقايض عليها . فلهذا نجد أن المحيط الهندى ، قد كان السوق التجارى الكبير الذى كانت تتجمع فى موانيه البضاعة من أقطار الشرق الأقصى والهند وغيرها . وأخذت هذه المرحلة تنتقل رويداً رويداً نحو الشمال حتى تم انتقالها إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط وكان طبيعياً أن يتخذ العاملون فى هذه التجارة مراكز لهم على مقربة من هذا البحر . ولهذا جاء هؤلاء التجار إلى مصر ، واتخذوا منها موطناً لهم فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، وكانت مرحلتهم هذه نهاية لنشاط واسع المدى ، عبر قرون بعيدة الغور ، وانتقلت هذه التجارة وزعامتها إلى الغرب منذ القرن الخامس عشر . وكانت بداية الغرب فى التجارة العالمية ، حلقة مكملة لما بدأه العرب بما أدخلوه من تحسينات فى التنظيمات التجارية بحكم الخبرة والتجربة وتطور الظروف .

ومرحلة انتقال الزعامة التجارية إلى الغرب وظروفها لأمر جدير بالبحث والدراسة للتعرف على أصوله والعمل على توضيح أسسه ، بمقارنتها مع ما عمل به الغرب ، والاستعانة فى هذه الدراسة بمجموعات وثائق الجنيزة التى نقلت من مصر القديمة (جنوب القاهرة) فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى وأن عدداً كبيراً منها ما زال قيد الدراسة .

والكارمية الذين عرفوا بهذا الإسم هم فئة من كبار التجار الذين اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل وما إليها من بهار وغيره من البضاعة. ويرجع احتكار هذه التجارة بيد جماعات من كبار المشتغلين بهذه التجارة إلى سيد رئيسى

وهو أنه ، بالنسبة للظروف التى كانت قائمة فى ذلك الماضى السحيق ، لم يكن من اليسير حصول التاجر الصغير على بضاعته إلا عن يد جماعة لها رأس مال كبير ، وتنظيم وسائل النقل وما إليها وتعرض ما تنقله فى الأسواق الكبرى فى مصر وغيرها حيث كانت تعقد المزايدات ومن ثم تنتقل إلى يد تجار نصف الجملة ومنهم إلى التجار الصغار فى مصر وغيرها كما كانت تنتقل أيضاً إلى التجار والوكلاء من الغرب الذين يحضرون لشراء هذه البضاعة لتزويد الأسواق الأوروبية بحاجتها . وكانت الرغبة فى السيطرة على هذه التجارة التى كانت بين العرب من أول الدوافع ، إلى قيام البرتغال بكشف الطريق حول أفريقيا ، إلى المحيط الهندى ، منذ نهاية القرن الخامس عشر .

والواضح أن التجارة تتطور مع تقدم الحضارات ، ونشاط العاملين بها ، فالعرب قد انتشروا بعد الإسلام ، فى الموانىء المطلة على المحيط الهندى ، وتغلغلوا فى داخل القارة الإفريقية للعمل التجارى ، وإنشاء الشبكات العديدة لتجارة القوافل ، سواء بالنقل المائى أو على الدواب ، كما استخدم ، فى عدد من المناطق ، التى لا تصلح فيها عمليات النقل بالدواب والسفن ، الإنسان للنقل ، وحددت للانسان مناطق معينة يعمل فيما بينهما ، وكان هؤلاء يقدمون عن طريق زعيم . يجمع هؤلاء من السلاطين المحليين ، الذين يتقاضون أجورهم من زعيم العمل ، وكان بين هؤلاء ، أسرى الحروب ، التى يشنها الزعماء على بعضهم البعض . تجدد النشاط العربى فى السيطرة على الملاحة فى المحيط الهندى بخاصة ، ووصلوا إلى الشرق الأقصى ، وازداد النشاط بعد أن كان فى الفترة السابقة ، لظهور الإسلام ، فى حالة أقرب إلى الكساد التام لأكثر من سبب .

ويهمنا بادىء ذى بدء ، الكشف عن أصل اللفظ « كارم » الذى ورد فى المراجع ، بإضافة الألف واللام (أداة التعريف) ، فكان يقال ، الكارم والكارمى والكارمية ، وهذا يؤكد أنه لفظ عام ، ويؤكد هذا ما ذكره القلقشندى ، كما سنبينه فيما بعد — إن هذا اللفظ قد وجد فى الدواوين ، على هذا النحو ، ولا معنى به فى العربية ، وبهذا أضعف الرواية التى ترجعه إلى « الكانم » ، على اعتبار القائمين لهذه التجارة كانوا من بلاد الكانم الإسلامية . وهذا بطبيعة الحال غير صحيح إطلاقاً .

وكان من الضرورى أيضاً ، أن نبحث عن أصول هذه الفئة التجارية . الأمر

الذى نجده وثيق الاتصال بمصدر اللفظ ، فالفئة قد وجدت ، فى صورة من الصور ، ثم تطورت ، مع الزمن ، مع التقدم الحضارى ، وصار هذا الإسم ، هو ما تعرف به ، وتوارثه من جاء بعدهم ، أو من تحولت إليه السيطرة التجارية ، فى أسواق الهند وغيرها . وجاء فى هامش الصفحة ٨٩٩ من كتاب السلوك للمقريزى ما يفيد أن الكارمية كان معظمهم من أهل بلد الكانم الإسلامية[1] ، ويفترض ليتمان أن هذا اللفظ قد أخذ عن متاجرهم ، إذ وجد أن كلمة Wararima وهى لفظة أمهرية تفيد معنى الحبهان وهو من التوابل التى اشتغلوا بها[2] .

ويقول ابن ماجد فى كتابه ، أن طريق استجلاب الفلفل قديماً هو بلاد الكانم[3] ويشير الإدريسى أن هؤلاء التجار كانوا ينقلون من حوض تشاد الشب إلى مصر[4].

ومما نوضح بعاليه نستطيع أن نصل إلى عدة نقاط من أهمها أن لفظ « كارم » هو اسم عام ، وأنه لم يكن إسماً عربياً ، ثانياً أن هؤلاء الكارمية قد جاءوا إلى مصر واتخذوا منها مركزاً لأعمالهم فى عام ١١٨١ م . أما ما جاء عن الصلات التجارية بين مصر والكانم فليس بالأمر ذى الأهمية فى الموقف الخاص بأصول اللفظ وتطوره ونحاول أن نستعين بأوراق الجنيزة ، ونجد فى هذه الأوراق ، أو بمعنى أدق فيما نشر منها حتى الآن أن التجارة « الكارمية » قد كانوا يمارسون تجارتهم فى المحيط الهندى وأنهم قد اتخذوا لهم مراكز رئيسية فى أمكنة تجارية هامة ، فمنها ما كان فى كوجزرات ومنها ما كان فى الخليج العربى مثل سيراف ، كما كانت لهم وكالات فى مختلف الموانى ، كما كانت جماعات منهم منتشرة فى مختلف المدن الكبيرة مثل بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها .

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك القسم الأول نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٣٨ .

(٢) الدكتور صبحى لبيب فى مقاله « التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى » الذى نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الرابع — العدد الثانى لسنة ١٩٥٢ ص ٦ وما بعدها .

(٣) دكتور صبحى لبيب فى مقاله آنف الذكر .

(٤) الإدريسى : صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ص ٢٢ و ٣٩/٤٠ نقلا عن مقال الدكتور صبحى لبيب المشار إليه أعلاه .

وبعد أن تجمعت لدينا المعلومات الكثيرة عن النشاط الكارمى من القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده ، عما فى ذلك الافتراضات فى محاولة التعرف على أصولهم ننتقل إلى عرض لما كانت عليه الحالة التجارية فى بحر الهند (المحيط الهندى) منذ القدم ، فى صورة موجزة ، وقد يبدأ هـذا عما قامت به المللكة حتشبسوت التى حكمت مصر فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، بمنع الوسطاء التجاريين فى الحصول على التوابل والمواد العطرية. وأرسلت السفن المصرية إلى بلاد بنت لشراء هذه الحاجيات ، وكانت لازمة بخاصة فى خدمة المعابد ، من أماكن عرضها ، وفى هذا دليل على قيام نشاط تجارى على مستوى مناسب — فى ذلك العهد السحيق .

وقد لا يعوزنا الموقف الحالى إلى الخوض فى التطورات التجارية من الألف الثالثة قبل الميلاد التى أخذ بها كنقطة بعيدة فى القدم لبداية للنشاط التجارى بخاصة ما يتعلق معه بمصر .

ويتبين لنا بعد هذا العرض أن « الكارمية » قد نشأت أولا فى المحيط الهندى أو على الشاطىء الغربى للهند ، وإذا اقتطعنا اللفظ قسمين لوجدناه يتكون من « كار » فى المقطع الاول ثم « يم » فى المقطع الثانى أى « كاريم » — وكار معناه الحرفة أو العمل أو التجارة أو الوظيفة إلخ إلخ ، ويم معناه « المحيط أو البحر البعيد الشواطىء أو النهر الكبير ، وبهذا نخرج إلى النتيجة بتفسير هذا اللفظ إلى « كاريم » وسقط الياء وصار « كارم » أى « حرفة التجارة فى البحار » وهذا فيما نعتقد لفظ يرجع فى أصوله إلى لغة هندية على الجانب الغربى منها ونجد أيضاً أن لفظى كار ويم موجودان فى صورة أو أخرى فى المصرية القديمة وأن لفظ « كار » ما زال متداولا حتى اليوم بمعنى الحرفة أو العمل « كارك أيه » .

* * *

وفى ختام هذه الكلمة القصيرة عن الكارمية فى العهد السابق لانتقالهم إلى مصر فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى نجده لزاماً علينا التنويه والإشادة بالبحث القيم الذى كتبه الدكتور صبحى لبيب الذى جمع فيه الشاردة والواردة عن نشاطات

الـكارمية فى الفترة التى تعرض لهـا . ونعتقد أن مجال البحث ما زال واسعاً أمام الباحثين لتحقيق الجوانب المتعددة للموضوع بخاصة بعد ظهور دراسات من وثائق الجنيزة . والله المستعان

« مراجع البحث »

GOITEIN, S.D. : Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, 1966.

WIET, GASTON : Les Marchands d'Epices sous les Sultans Mamlouks, Editions des "Cahiers d'Histoire Egyptienne", Le Caire, 1955.